فى وزارة الخارجية

عن المجلة

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

أكثر من بقى إلى اليوم من أصدقاء « ألفونس لا كور » لم يروه إلا فى أخريات أيامه. وقد كان ألفونس منذ ثورة ١٧٤٨ إلى أن قتل فى حرب القرم فى العام التالى يقضى كل أيامه فى مشرب « كافيه دى بروفنس » فى شارع « ريوسان هورنيه » حيث لا يجالسه ولا يحادثه أحد، لأن القصص التى كان يرويها هذا السياسى القديم مما لا يستطيع تصديقه إنسان. فإذا ما جلست إليه وسمعته يبعد ويشتط عن مدى ما تتصور أنه الحقيقة ...

انتهزت أول فرصة لتعتج بها وتترك مجلسه، لكننى قد قرأت مذكرات خاصة لبعض السياسيين، فلم أستغرب ما نقلوه إلىّ من أخبار هذا السياسى القديم، فذهبت إليه وسمعته يتحدث عن مدة وجوده فى مصر تحت قيادة كليبر، وكان مما قاله :

« لقد تركت مصر على أثر قتل هذا القائد. ولست أكتم عنك أنى كنت أوثر البقاء فيها، وكنت أريد اعتناق الإسلام؛ وكان أول ما لفتنى إليه وحببنى فيه إباحته تعدد الزوجات، ولولا تحريمه الخمر ومجادلتى مع المفتى فى شأنها مجادلة أقنعته بأننى لن أترك شربها لو أسلمت لأعلن المفتى إسلامى من زمن بعيد. فلما توفى الجنرال « كليبر » وجعلوا المسيو « منو » رئيساً لى، عولت على الاستقالة والإقامة فى لندن حيث لا أشتغل بشىء غير ترجمة ما وقع عليه اختيارى من الكتب الإسلامية، وفى مقدمتها القرآن. وكان المسيو أوتو سفير فرنسا فى لندن يمهد للصلح بين انكلترا وفرنسا بعد حرب استمرت عشرة أعوام، ولست أحب التحدث عن كفايتى، ولكنى أؤكد لك أن هذا السفير استعان بى، فأديت له خدمات جليلة : ذهبت معه إلى لندن مستقيلاً من الجيش، فكانت أسعد أيامى تلك التى قضيتها فى لندن أترجم كتب الإسلام وأسعى فى توطيد السلم بين الدولتين

ولقد كادت تقضى على السفير وعلى أعوانه كثرة أعمالهم، لأن الرجل الذى كنا نفاوضه من أصلب الرجال وهو وليم بت، وليس من السهل على ست دول مجتمعة أن تعامل رجلاً كهذا، فكيف ونحن نفاوضه فى صلح بعد حرب استمرت أعواماً عشرة؟

وكانت أعمالنا مساومة على أخذ أرض مقابل أرض والتنازل عن جزيرة فى مقابل شبه جزيرة. وهل إذا فعلنا ذلك فى فينيس تفعلون ذلك فى سيراليونا؟ وهل إذا أعطينا مصر للسلطان، تعطوننا مدينة الكاب التى أخذتموها من حلفائنا الهولانديين؟

وفى يوم من الأيام عاد إلينا السفير متعباً منهوك القوى فأجلسناه واجتمعنا حوله وبعد أن تمالك قواه قال : « لقد كان أهم لعبة يريد أن يلعبها ضدنا الإنكليز خاصة بمركز مصر، وقد وجدت أنه لا يزعجهم شىء كما يزعجهم وجودنا فيها لأنهم يخشون أن يجعلها نابليون قاعدة للهجوم على الهند، ولذلك كنا كلما توقف وليم بت فى أمر من الأمور قلنا له : « إذا كان الأمر كذلك فنحن لا نستطيع أن نخلى مصر » فنراه فى الحال قد رجع إلى صوابه، وبسبب مصر نلنا شروطاً باهرة فى الصلح مع الإنكليز والحق أننا لم نخش الأساطيل والجيوش الإنكليزية وإنما نخشى دهاءهم السياسى، ويختلف الإنكليز عنا فى نقطة هامة هى أننا إذا حصلنا على جزء من المستعمرات فيا وراء البحار جلسنا مطمئنين فى باريس ودبرنا التسهيلات التى نستطيع بها إخضاع ذلك الجزء لنا ونحن فى أماكننا جالسون. أما الإنكليزى فيحمل زوجته وأبناءه ويذهب إلى ذلك الجزء كائناً ما كان وصفه محاولاً جعله كأية بقعة من بلاد الإنكليز

وأخيراً تم التفاهم على شروط المعاهدة وهنأت المسيو أوتو على نجاحه وكان شديد الفرح بذلك النجاح فلم يجلس مطمئناً إلينا بل أخذ يجرى من غرفة إلى غرفة وهو يضحك ضحكا عالياً وأنا جالس فى ركن من غرفة الاستقبال أنظر إليه كلما مر من أمامى. وفى وسط السهرة جاءت رسالة على يد رسول من باريس فنظر إليها السفير ولم يفتح فمه بحرف، بل خانته قوته ووقع على الأرض فجريت نحوه فاجتمعنا حوله وحملناه فنام على المرقدة وكان شكله يدل على أنه قد مات لولا أن نبضه كان لا يزال يدل على حياته

والواقع أنى أكره الفضول ولكن لما رأيت الإغماء على السفير لم أستطع منع نفسى من النظر إلى الرسالة التى سببت

ذلك فبكيت أصعق أنا أيضاً عند ما قرأتها . لكنه لم يغم عليّ ، بل جلست فى ركن من القاعة وأخذت أبكى . وهذه الرسالة تدل على أن جيوشنا أخلت مصر . وكانت المعاهدة لم توقع بعد ولا بد إذن من فسخها لأن الانكليز ما عادوا فى حاجة إلى إخراجنا منها . لكننا فرنسيون فلا نهزم بسهولة . والانكليز يظلموننا حين يرون أن إظهارنا للعواطف التى يستطيعون كتمانها يدل على أننا ضعفاء .

بعد قليل أفاق المسيو أوتو وقال لى : « ترى يا مسيو ألفونس أن هذا الإنكليزى وليم بت سيضحك منى عند ما أطلب إليه توقيع المعاهدة » . فخطر ببالى خاطر فجائى وقلت : « تشجع ! كيف نجزم بأن الإنكليز وصل إليهم هذا الخبر ؟ ربما استطعنا الحصول على توقيعهم على المعاهدة قبل أن يعلموا بهذا الخبر »

فقفز المسيو أوتو من مكانه ومدّ نحوى ذراعيه وعانقنى وقال : « لقد أنقذتنى يا مسيو ألفونس ! إن الخبر وصل إلى باريس عن طريق طولون ، وسيصل متأخراً إلى انكلترا عن طريق جبل طارق ؛ فإذا نحن احتفظنا بالسر أمكننا الحصول على توقيعهم على المعاهدة

ولست أستطيع أن أصف حالتنا فى اليوم التالى ؛ فقد كانت ساعاته تمر بطيئة ، حتى لقد انتقل المسيو أوتو من الشباب إلى الشيخوخة فى ذلك اليوم . ولم أطق الصبر على الانتظار ، فخرجت من المنزل مرتاداً كل طريق مقتحماً كل مكان . ولكننى لم أسمع أى خبر . ولما جاءت الساعة الثامنة وهى موعد توقيع المعاهدة اقترحت على المسيو أوتو أن يشرب زجاجة من الخمر قبل أن يذهب ، لأنى خشيت أن يستدل الإنكليز على الحقيقة من اصفرار وجهه واضطراب يده . ثم ركبت معه عربة من عربات السفارة ، وكانت الخمر قد أنشأت قواه ، فلما وصلنا إلى باب وزارة الخارجية بقيت فى العربة ونزل وقلت له : « إذا تم التوقيع فأعطنى إشارة . وإلى ذلك الحين سأمنع وصول أية رسالة إلى الوزير الإنكليزى » . فصافحنى ووعدنى بأن يدنى شمعة من النافذة حتى أراها من الطريق ، ثم تركت العربة تعود ووقفت قرب الوزارة فرأيت العربات مقبلة ، وقلت فى نفسى : لو جاء رسول من رئيس الوزارة إلى وزير الخارجية فإنى أمنعه ولو بقتله ، فإن آلافاً من الجنود قد ماتت لتكسب مجد الحرب . وماذا إن شنقت وانتصرت بلادى ... ؟

ثم خطر ببالى خاطر قد عوت حوذياً وأعطيته جنيهاً وقلت له : « إذا ركبت عربتك مع أى إنسان فلا تتلق الأوامر منه إلا منى ، وأنزلنى فى شارع هارى ولا تترك الذى معى إلا فى نادى ويتر فى بروتون ، وسأعطيك جنيهاً آخر »

فوافق الحوذى . وبعد دقائق جاء رسول وهم بدخول الوزارة فأمسكت بذراعه وقلت : « هل أنت رسول إلى وزير الخارجية ؟ » قال : « نعم » . فقلت : « تعال معى فهو الآن عند السفير الفرنسى »

وكان كلامى بلهجة تأكيد لم يتردد الرسول فى تصديقها . وركب معى فى عربة الحوذى الذى اتفقت معه . ولكن السائق جرى بنا فى الطريق الذى أرشدته إليه وهو يختلف عن الطريق المؤدى إلى السفارة . فصاح الراكب معى بالحوذى أن يقف وقال إن فى الأمر حيلة . ومنعته فاستغاث فكتمت أنفاسه فجلس هادئاً وأردت أن أطمئنه فقلت : « إنى رجل شريف مثله ، وإن الأمر مراهنة فقط »

قال : « مراهنة ! ألا تعلم أنى أؤدى عمل الحكومة ؟ إن عملك يستوجب العقاب »

فقلت : « هذا هو موضوع المراهنة »

قال : « إذن فأنت مجنون »

عند ذلك نظرت إلى ساعتى فوجدت موعد التوقيع قد فات ولم أجد ضرورة للاستمرار فى الخطة ، فأوقفت العربة ونزلت راكضاً تاركاً من فيها تحت رحمة الحوذى . وركبت عربة أخرى إلى دار السفارة . ومن منعطف فى الطريق راقبت ذلك الرسول يقبل نحوها . وبعد دقائق نزل المسيو أوتو فرحاً مستبشراً وقال لى أنه تم توقيع المعاهدة . ولكن بعد التوقيع وصلت رسالة إلى الوزير الإنكليزى بأن الفرنسيين أخلوا مصر . فقال ذلك الوزير أنه لو تقدمت الرسالة دقيقة لما أمكن توقيع المعاهدة ، ولكن أمرها خرج من يده

فهنأت السفير بانتصاره ، وعدت وفكرت فى أن مصادفات صغيرة كتأخير الخبر لحظة أو تقديمه لحظة يكون لها تأثير فى مصائر الدول وأحوال السياسة العالمية . فآمنت بالقضاء والقدر ولم أعد أسخر من اعتقاد الشرقيين بهما . وعكفت بعد ذلك بإيمان صادق على استئناف ترجمة القرآن وسائر الكتب الإسلامية

عبد اللطيف النشار

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)